

غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو

يعتبر نص " غادة أم القرى " الرواية الأولى في شبة الجزيرة العربية، وفي الجزائر أيضا . فهذا النص من المحاولات الأولى في تأسيس الرواية العربية الجزائرية. و فيها جاوز أحمد رضا حوحو المفهوم الضيق للقصة القصيرة، فحبكتها كانت قوية بناها الكاتب على أكثر من حكاية. و قد رأى النقاد أن هذا النص يستوفي كل الشروط الفنية التي تجعلها باكورة الرواية الجزائرية، من حيث الحجم فهي تجاوزت بصفحاتها حجم القصة القصيرة . و من حيث النشر فقد نشرت مستقلة ، و احتوائها على عنصر التشويق ، وتعدد الحوادث ، و تسلسل الأحداث التي خضعت للترابط المنطقي منتهجة طريق الرواية التقليدية. و قد كانت موضوع سجال بين النقاد فبعد المالك مرتاض ينتصر لريادتها في الجزائر، ويشاطره واسيني الأعرج الرأي. و هو الذي يضعها تحت لواء الاتجاه الإصلاحية. و تبقى في نظره على الرغم من ريادتها محاولة طيبة وغير مكتملة.

و قد كتب أحمد رضا حوحو غادة أم القرى سنة 1947 . و تلاها بعد ذلك نص "الطالب المنكوب" لعبد المجيد الشافعي سنة 1951 . ثم نص الحريق لنور الدين بوجدره الذي كتبه سنة 1957 .

لقد ساهم من جاور مكة والمدينة في النهضة الفكرية والأدبية من بينهم احمد رضا حوحو الذي أقام في المدينة ومكة 12 سنة من عام 1934 إلى عام 1946 ، ثم عاد إلى الجزائر في مرحله الشح في الحجاز في مرحلة تجاوز حوحو بفكره المجتمع المحلي إلى فضاء الثقافة الإنسانية.

النص:

يفتح حوحو قصته بإهداء جاء فيه "إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب ، من نعمة العلم ، من نعمة الحرية إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود إلى المرأة الجزائرية أقدم هذه القصة تعزية وسلوى."

نلتمس في هذا الإهداء صدق في الشعور ودفء في العاطفة . و لعل تطرق النص إلى موضوع المرأة هو الذي أشعرنا بذلك . فالنص موضوعه الأساسي المرأة و مكانتها في البيئة الحجازية ، و قد أراد حوحو أن ينقل حقيقتها كما هي . و هدفه هو تقويم ما أفسده المجتمع . و يضاعف الاقتباس الذي اختاره حوحو من ثقافته الفرنسية هذا المعنى ، و هو لأندرى جيد الذي يقول فيه " أني لم أحاول أن أدافع ، أو أن أو أهاجم ، وإنما حاولت جهدي أن أتقن الرسم وأضيئ جيدا معالم الصورة " .

إذن سيصور الكاتب في هذه القصة نمط الحياة الاجتماعية في مكة ، و تهميش المرأة وانتصار المجتمع للمال ، وفساد الطبائع . و هذه هي مواضيعها .

يرى حوحو أن في هذا المكان ما يستحق التسجيل ، فهناك ظواهر تدعو إلى الإعجاب والإعجاب ، وهناك أفكار جامدة ، وهناك أفكار استشرافية . الحرمان و الجهل . كل ذلك تناوله رضا حوحو بثقافته الغربية وموهبته الفنية بما تتضمنه من نقد بريء ودقة ملاحظة ، وفهم صحيح للحياة .

يهدف حوحو إلى اكتشاف مواطن الضعف في هذه البيئة ، والغوص في نواحي الألم بغية النهوض والتقدم . في هذه القصة يصور الكاتب وضع المرأة الحجازية وحياتها البائسة ، وما تعانيه من ضروب الحرمان .

يتناول احمد رضا حوحو في هذه القصة وضع المرأة بين التقاليد البالية والحياة العصرية . الأولى التي تحط من شأن المرأة وتسلبها حقوقها تحت ذريعة العادات والتقاليد . أما الثانية فهو حريص على إبداء رأيه فيها على أن تكون ضمنها المرأة متعلمة ، وتحضى بحقوقها في الحياة .

1- بطله القصة اسمها زكية يصورها في البداية منهمكة في عملها ، منشغلة بالتطريز . ثم يصفها وصفا مرآويا : فهي معتدلة القامة ، رشيقة القد ، تكسو جسمها حمرة ، ذات عينين نحلاوين ، شعرها طويل فاحم السواد ، شفتاها قرمزيتان . هي الآن تدرك جمالها .

2- ثم يصف غرفتها ذات الزرابي الفارسية ، تغطي أرض الغرفة ببسط حريرية و أرائك ومساند . وهناك شبابيك ضيقة مطلة على الأبطح ، و هو الشارع العام لمدينة أم القرى . تتفرج على المارة في طريقهم إلى الحرم . وقع نظرها على شاب ثلاثيني ، شديد السمرة ، حاجباه كثيفان ، هذا شاب هو جميل ابن خالتها . هو الشخصية المركزية الثانية بعد زكية - في القصة . عادت زكية بذاكرتها إلى الماضي إلى الطفولة ، فقد كانا يلعبان ويلتقيان إلى أن منع والدها رؤيته بعدما بلغت سنة

1، فهي منذ سنوات لم تلتق به ، تذكرت حكايات الحب في ألف ليله وليله ؛زكية تحب جميل هل ستتزوج أم ستنتظر الأقدار.

3- ينتقل الكاتب بعد ذلك إلى وصف أسرة آل خليل ، وهي أسرة ارستقراطية ذات ثراء ونفوذ في الحكومات السالفة . كان ذلك حال هذه الأسرة مع الشيخ عبد الرحمن ، ولكن بعدها أصبح حال الأسرة متوسطا يمثلها سليمان خليل سليمان ، و هو والد زكية وأسماء. تزوج من فتاة جميلة جدا. ربت الأم ابنتها تربية محافظة جدا شديدة الغلو، اكتفت بتلقينها الخياطة والتطريز، ولم تعلمهما. و رب والد زكية جميل بعد وفاة والده في الحرب ، وهو احد الضباط ، فقام بتعليمه و توظيفه إلى أن استقل جميل بوالدته في بيت خاص بهما . كان جميل يحب أسماء وينوي خطبتها.

4- في القصة وصف لمكة وجبالها وطريقة العمران فيها . يظهر هذا الوصف متدرجا منه ما جاء في الصفحة 37 ، يقول الراوي "خرج جميل ذات مساء يتجول في ضاحية جرول ، و هي أجمل ضواحي مدينة أم القرى و أوسعها ، حيث انفرجت عندها سلاسل الجبال العديدة الملتوية كالأمعاء في مراوي ابراهيم فكشفت عن بطحاء شاسعة رائعة المناظر".

5- وصف للجيل الجديد ، فعلى هامش اندهاش سليمان من زيارة مفاجئة لثلاثة رجال ،قال " وهذا الجيل الحديث نسيج وحده ،لأنه ليس حديثا في علومه أو حضارته. كما يتبادر إلى الذهن، وإنما هو حديث في بروزه وشهرته، فأبناء الجيل الحديث في هذه البلاد هم عبارة عن طبقة من الناس كانوا في قائمة النكرات ،لا حسب لهم ولا نسب .ساعدتهم ظروف التقلبات... للبروز... واتتهم الفرصة على جمع الثروة "1

6- الشيخ أسعد هو الذي زار سليمان سمعته سيئة، له ابن دميم الخلق ،ورث أخلاقه من أبيه ، كل الناس تكرهه. ، ثم يسلط الضوء على دار سليمان وضيوفه، يخطب أسعد أحد بنات سليمان وهذا الأخير يرفض.

7- يصور الكاتب حاله زكية بعدما سمعت الحديث الذي دار بين أبيها وأسعد، واعتقدت أن جميل جاء لخطبتها ، ثم يصور حالة الغضب التي ألمت بأسعد وابنه بعدما رفض سليمان تزويجه ابنته، ثم قرارها الانتقام من جميل.

¹- أحمد رضا حوحو ،غادة أم القرى ، الأنيس السلسلة الأدبية تحت إشراف محمد بلقايد ، 2007 الجزائر عاصمة الثقافة العربية.ص31.

8- تعرض رؤوف وبمجموعة من الشباب لجميل استنفزوه، فضر بهم، ثم جاءت الشرطة ، وأخذت جميل وزوجت به في السجن، واختلق رؤوف حكاية ، وهي أنه وجد جميل في حالة سكر ، وطلب منه هذا الأخير مالا فرفض، فحكمت المحكمة على جميل بستة أشهر سجن بسبب السكر، وفي حضور شاهدي الزور مع الجلد ثمانين جلدة في كل شهر.

9- يصف الراوي حال جميل في السجن.

10- تألم زكية لحال جميل و عدم اكتراث عائلتها لحالها الوضع الذي أدى ،فقدان عقلها قد أصبحت بخبال.

10- وصف حال جميل في السجن، وانتقال والدته إلى دار أختها و قيامها بعناية زكية من خلال العقاقير والرقي، والتعاويد، والبخور التي أرهقت زكية إضافة إلى الذبائح والدجالين .

11- إرسال أم جميل عريضة للملك القادم من الرياض ، و وصف للموكب الملكي. استطاعت أم جميل أن تسلم العريضة للشرطي على عادة أهل مكة ، فقد كان الملك يستقبل شكاوى الشعب و كان الرد على شكايتها بعد يومين في مظروف، وكانت المفاجأة أن أعطاه الملك 50 ريالاً و السبب يرجع إلى أن العريضة حملت في الحقيقة طلب إعانة مالية ، و قد فعل المحرر ذلك دون أن يكثر بقصة أم جميل .توجهت أم جميل بعد ذلك إلى الكعبة الوقت الذي لا يزال يومين فقط على جلد جميل كما قررت المحكمة.

12- حال مكة إثر زيارة الملك سمعت أم جميل بأنة سيصلي المغرب في الكعبة فسارعت للقاءه و اعترضها الجنود، ولكن الملك ابن سعود رآها و نظر في أمرها، وحكت له ما حدث لابنها و ها بالنظر في القضية. و لما عادت أم جميل للبيت حكت لسليمان الذي أخبر ابنته بموت جميل ف، هو لم يعجبه أن يعرف الناس بقصة جميل لأن ابنته سيفتضح أمرها، وهذا ممنوع ، ولن يسمح به، وكان يختبرها لكن زكية دخلت في حالة نفسية سقطت على الأرض فأغمي عليها، وقال الطبيب أن نبضات قلبها ضعيفة ، وأن حالتها خطيرة.

12- استدعاء الملك مدير الأمن العام وأمر بإحضار الجميع ، وتوقيف الحكم على جميل صادق تكلم الملك مع الشهود ، ولاحظ بخبرته أنهما يكذبان وهددهما بالسيف إن لم يقولوا الحقيقة، واعترفا وأمر الملك بإيداع رؤوف السجن ، ثم أمر بأن تسود وجوه الشاهدين، ويطاف بهما في الشارع حتى يكونان عبرة . و في مشهد مسرحي يتقدم ضابط شرطي، ويخبر مدير الأمن العام بموت رؤوف في غرفة السجن.

13-وصف لحالة زكية ، وهي تحتضر ، و قد تزامن ذلك مع مجيء رسول الملك ليخبر العائلة بوفاة جميل ، وقد الرسول سمع العويل والنحيب، فاعتقد أن الخبر وصلهم.أي خبر موت جميل.

مما سبق يمكن القول إن:

- نهاية البطلان زكية و جميل تعتبر احتجاج صارخ ، يستنطق الواقع المصاب في بنيته الفكرية والأخلاقية، ويحاول إعادة بنائه من جديد وفق قيم التقدم ، فنهايتهما هي استجابة لوضع المجتمع. وهذا كله يفسر النهاية المساوية للرواية على الرغم من انتصارها للخير عندما زوج برؤوف أسعد في السجن. و الملاحظ أن الكاتب يصور الواقع بكثير من مظاهر السوء (سيطرة التقاليد على المجتمع) الرد على الطارق بالتصفيق على عادة أهل البلاد ، و إقبال الناس على السحر ، والشعوذة بحثا عن العلاج و الدجل ، والذبائح ،انصياع المجتمع لشهوة المال.) لذلك فالرواية غير متفائلة ، و ربما الجانب الوحيد المشرق فيها هو إنقاذ الملك لعائلته أم جميل .

-يصور الكاتب في هذه القصة المرأة المضطهدة (زكية و أم جميل) المرأة التي لم تنل حظها من التعليم ، المرأة الصامته التي لا رأي لها ، ولا تبادر،فهي تتمنى فقط.و تعبر نهاية زكية بتلك الطريقة عن الرفض المطلق للمجتمع الغارق في الجهل . كما تعبر عن رفض تجهيل المرأة.

-تعبر المظاهر العصبية وفقدان العقل عن التردّي، وعلى أن المشكلة في العقل الذي فضل الكاتب ذهابه .